المهذب بن الزبير

هو شاعر من شعراء مصر فى العصر الفاطمى ، نشأ فى أسوان من بيت علم وأدب وفضل ، ورحل إلى القاهرة ، فاتصل بالوزير المشهور الصالح طلائع ابن رزيك (٥٤٩ - ٥٥٦ هـ .) واختص به . وكان هذا الوزير أديباً شاعراً ، وكان يتخذ له مجلساً يحضره الأدباء والشعراء ، وكان يسمعهم بعض مايقرض من الشعر ، وكان الناس يهرعون إلى نقل شعره ، وقد اتهمه معاصروه بأنه لم يكن يحسن الشعر وأن أكثر شعره صنعه له المهذب بن الزبير ، وقالوا إن المهذب حصل من الصالح بسبب ذلك على مال جم ، حتى إنه كان يلبس الثياب المذهبة .

ويبالغ ياقوت فى علم المهذب بالأنساب ، ويقول إنه ألف فيها كتابا كبيراً يقع فى نحو عشرين مجلداً ، كل مجلد عشرون كراساً ، وقد رأى بعضه ياقوت فوجده مع تحققه هذا العلم غاية فى معناه لا مزيد عليه ، وعلل لاحسان المهذب فيه بأنه مضى إلى بلاد اليمن فى رسالة من بعض ملوك مصر ، واجتهد هناك فى تحصيل كتب النسب وجمع منها ما لم تجتمع عند أحد حتى صح له تأليف هذا الكتاب .

ولا ترجع أهمية المهذب فى عصره إلى علمه بالأنساب ، وإنما ترجع إلى شعره ؛ فقد كان خير شعراء مصر فى عهد ابن رزيك . وإذا عرفنا أن هذا العهد امتاز بنشاط واسع فى الشعر وأن شعراء كثيرين كانوا موجودين فيه وعلى رأسهم الرشيد أخو المهذب وابن الصياد وابن قادوس ، أمكننا أن نعرف إلى أى حد حقق المهذب لنفسه مقدرة فى عمل الشعر وصنعه . وقد ترجم له العماد الأصبهانى فى خريدته ترجمة ضافية استهلها بقوله : « المهذب أبو محمد الحسن ابن على بن الزبير محكم الشعر كالبناء المشيد ، وهو أشعر من أخيه الرشيد ، وأعرف بصناعته وإحكام معانيه ، توفى قبل أخيه بسنة ، لم يكن فى زمانه

أشعر منه أحد وله شعر كثير ، ومحل فى الفضل أثير . » ويروى له العماد بعد هذه المقدمة قطعة كبيرة من شعره ، نستطيع أن نطلع منها على جميع خصائصه .

ولعل أول ما يلاحظ على هذا الشاعر الممتاز أنه لم يكن شاعر نفسه ، بل كان شاعر الصالح بن رزيك ؛ فهو من الشعراء الذين يتغنون بمناقب الأمراء والوزراء على نحو ما نعرف عند شعراء المشرق الذين اتخذوا المديح مرفقاً لهم ومكتسباً . ومن يدرس الشعر العربى يعرف أن قصيدة المديح تقوى تارة وتضعف أخرى ؛ فهى تقوى حين تعبر عن فتوح وانتصارات جديرة بأن يسجلها الشعراء ويتغنونها ، وهى تضعف حين تعبر عن زلفى وما يتصل بالزلفى من رياء ونفاق .

للمديح عندنا إذن قصيدتان لا قصيدة واحدة ، قصيدة ذات موضوع ، وقصيدة ليس لها موضوع . ومن الضرب الأول مدائح أبى تمام فى قواد الدولة العباسية وحروبهم فى خراسان وكذلك مديحه فى المعتصم وفتحه لعمورية ، ومنه أيضاً مدائح المتنبى فى سيف الدولة وحروبه مع الروم . ومن الضرب الثانى مدائح مهيار وغيره من الشعراء للوزراء فى المناسبات المختلفة من أعياد وتقلد للوزارة ونحو ذلك .

وفرق بعيد بين الضربين ؛ ففى الأول نقرأ حقائق واقعة ، بل يقرأ العرب تاريخهم فى صورة رائعة من الغناء والشعر . أما فى الثانى فلا نقرأ حقائق ولا ما يشبه الحقائق ، ولا يقرأ العرب تاريخهم ولا ما يشبه تاريخهم ، إنما نقرأ ويقرءون ملقاً ونفاقاً .

وإذا رجعنا نتساءل من أى الضربين كانت مدائح المهذب وأشعاره فى الصالح بن رزيك ، وجدنا الخريدة تجيبنا بأنها كانت من الضرب الأول ؛ فقد ملأ ابن رزيك أيامه ببطولة مجيدة فى حرب الصليبيين وردهم عن حصون الشام . وإن فى كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين للمقدسى ما يصور — من بعض الوجوه — مدى هذه البطولة . ومن يرجع إلى عقد الجمان للعينى يجد كثيراً من الألوان التى ترسم صورتها رسماً دقيقاً ؛ فقد كانت الجيوش المصرية ترسل فوجاً من بعد فوج إلى ثغور الشام ، وكانت أعلامها ما تنى تطل على العريش وغزة وعسقلان ، وكان الأسطول المصرى يقوم بدور مهم ، فهو يفزع صوراً وعكا ، وهو يقطع على سفن الصليبيين طريقها إلى الموانى الشامية . وكان

الصالح بن رزيك يقود بنفسه بعض جيوشه البرية ، وكم سجل لمصر من فتوح وانتصارات فى عسقلان وغير عسقلان ، وكم أرسل من جيوش يتبعها جيوش ، وفى ذلك يقول أو يقول المهذب بن الزبير :

غزوناهم فى العام ستين غزوة بأسد سرت نحو البلاد بعقبان
فكم بين حصنى عسقلان وغزة مساحب نسوان ومصرع فرسان
وفى بيت لحم لحم قتلى كثيرة تجررها فوق الثرى أسد خفان

لم تكن حياة الصالح بن رريك حياة فارغة ، بل كانت حياة مليئة بالحوادث والخطوب ، حوادث هذه الغارات وخطوب هذه الانتصارات .

ومثل هذا الوزير لا تكون قصيدة المديح فيه قربى ورلفى ورياء ونفاقاً ، وإنما تكون ثناء على صفحات مشرقة فى تاريخه وتاريخ قومه . ولعل مما يذكر لشعراء العربية بالاطراء أنهم لم يتركوا شخصاً من هذا النوع العظيم دون أن يسجلوا أعماله وفتوحه فى شعرهم . ولعلنا نستطيع الآن أن نفهم لماذا يجل المؤرخون من مصريين وغير مصريين الصالح بن رزيك وعهده ؛ فقد كانت وزارته للخلفاء الفاطميين عوناً للاسلام والمسلمين ضد الصليبيين ، وكانت القاهرة فى أيامه معرضاً لمواكب الأسرى من الفرنج ، وكان المصريون يخرجون للفرجة على هذه المواكب كأنها « كرنفالات » عظيمة .

وجد الوزير الممتاز الذى يتوج هام قومه بالفتح والنصر ، فكان لابد أن يوجد الشاعر الممتاز الذى يتغنى باسم هذا الوزير و بما قلم من أظفار أعدائه ، وكان المهذب بن الزبير هو هذا الشاعر الذى تغنى بالوزير المصرى و بجيوشه وأسطوله ، و بما أثخنوا جميعاً الأعداء وشدوا الوثاق منهم . ومن أطرف ما روى له العماد فى تصوير ذلك قصيدة نونية يبدؤها على هذا النحو :

أعلمت حين تجاور الحيان أن القلوب مواقد النيران
لما أبوا ما فى الجفان قريتهم بصوارم سُلت من الأجفان
وثلمت فى يوم العريش عروشهم بشبا ضراب صادق وطعان
ألجأتهم للبحر لما أن جرى منه ومن دمهم معاً بحران
مدح الورى بالبأس إذ خضبوا الظبا فى يوم حربهم من الأقران

ولأنت تخضب كل بحـر زاخـر ممن تحارب بالنجيع القـانى
حتى ترى دمهم وخضرة مائه كشقائق نثرت على الريحـان
وكأن بحر الروم خُلِّق وجهه وطفت عليه منابت المرجان
ولقـد أتى الأسطـول حين غزا بما لم يأت فى حين من الأحيـان

وواضح فى نغمة هذا الشعر أن الشاعر فرح مبتهج بما أفاء الله على الصالح من نصر فى العريش ؛ فقد دق أعناق الأعداء هناك ، ونكصوا ، أو قل نكصت بقيتهم على أعقابها إلى البحر منهزمة فتلقاها الأسطول يقتل فيها ويسبى ؛ ولا ريب أن تصوير المهذب لدم الأعداء على صفحة البحر بأنه خضاب ، أو هو شقائق نثرت على الريحان ، أو هو خلوق بل هو منابت مرجان ، لا ريب أن هذا لتصوير كله وفق فيه . وقد استطرد من ذلك يصف سفن الأسطول :

شبهن بالغربان فى ألوانهـا وفعلن فعـل كواسر العقبان
أوقرتها عـدد القتـال وقد غدت فيها القنـا عوضاً عن الأشطان
فأتتـك موقـرة بسبى بينـه أسراهمُ مغـلولة الأذقـان

أليس لابن رزيك الحق فى أن يعجب بهذا الشاعر الذى يستطيع أن يصور مجده الحربى على هذا النحو البديع ؟ فهو يصف حروبه فى البر وحروب أسطوله فى البحر ، وكيف كان يأتى بالأسرى وقد غُـلّت أعناقهم وبلغت الأغلال أذقانهم فلا يستطيعون أن يعطفوا رءوسهم فضلا عن أن يطأطئوها . ونستمر مع المهذب فاذا هو يصف قتل الصالح لأمير من أمراء الفرنج ، يقول :

قتل البرنس ومن عسـاه أعانه لما عسا فى البغى والعـدوان
وأرى البرية حين عاد برأسـه مرّ الجنى يبدو على المران
وتعجبـوا من زرقة فى طرفـه فكأن فوق الرمح نصلا ثانى
فليهنـه أن فاز منـك بسيـد أوفى برتبتـه على كيـوان

ويبيّن أن المهذب يشبه عين البرنس على الرمح بنصل ، فكأن النصل ركّب نصلا آخر . وهذه صورة دقيقة . وقد تصادف أثناء هذه الحرب أو قـل هـذه الحروب أن وقعت زلازل شديدة فى الشـام دكت كثيراً

من حصـون الصليبيين ، فذكر ذلك ابن الزبير ملتمساً له تعليلا طريفاً :

ما زلزلت أرض العدا بل ذاك ما ... بقلوب أهليهـا من الخفقـان
وأرى بأن حصـونهم سجدت لما ... أوتيت من ملك ومن سلطـان
والناس أجدر بالسجود إذا غدا ... لعلاك يسجد شامخ البنيـان
قلدت أعنـاق البرية كلهـا ... مننـاً تحمَّل ثقلهـا الثقـلان

وهنا نلاحظ شيئاً من المبالغة عند المهذب إذ يطلب إلى الناس أن يسجدوا للصالح ، ولكن لعله يريد المجاز ؛ فسجود الحصون نفسها سجود مجازى . ونحن لا نجد فى شعر المهذب مبالغة أو قل تطرفاً فى المبالغة . ولعل من مظاهر ذلك أن الصالح كان غالياً فى تشيعه ، ومع ذلك لا نجد فى شعر المهذب ما يشير إلى هـذا التشيع . وأكبر الظن أنه لم يكن مثل سيده غالباً فى تشيعه . وربما كان مما يدل على ذلك أيضاً ما يروى عنه وعن أخيـه الرشيد من أنهما جميعاً انحـازا إلى صف أسـد الدين شيركوه حين جاء إلى مصر مع ابن أخيه صلاح الدين ضد شاور الوزير الفاطمى المعروف .

على كل حال ليس فى شعر المهذب ما يدل على تشيع ولا غلو فى التشيع ، ومن هنا لم تظهر المبالغة فى مديحه لشخص الصالح على طريقة مايعرف عن المتشيعة فى أئمتهم . وأكبر الظن أنه قد اتضح لنا صوت المهذب الآن ؛ فهو صوت قوى فيه طرب ، هو طرب المصرى إذ يرى بلاده تنتصر نصراً بعد نصر . واستمع إلى هذه القطعة من قصيدة أخرى له فى الصالح :

تخـال سيـوفه لمـا انتضاهـا ... جـداول والرماح لهـا غصـونا
وتحسب خيله عقبـان دجن ... يرحن مع الظـلام ويغتـدينا
إذا قدحت بجنح الليـل أورت ... سنـاً يغشى عيـون الناظرينا
وإن صبحت مع الاصباح عـدواً ... أثارت للعجـاج به دجـوناً
كأن الشمس حين تثير نقعـاً ... تحاذر من سطـاه أن تبينـا
تخـال البحر مد به خليـج ... إذا ما مد بالقضب اليمينـا
وما تنـدق يـوم الروع حتى ... يدق بها الكواهـل والمتـونا

وهذه قطعة — كما يرى القارئ — وافرة بالحياة والحركة التى تنم عن

كل ما فى قلب الشاعر من بهجة أثناء مدحه لهذا الوزير الشجاع ، أو قل هذا الوزير البطل الذى أتاح لمصر فى عهده حياة كريمة .

وليس كل ما رواه العماد للمهذب ينساق فى مديح ابن رزيك وتمجيد حروبه وانتصاراته ؛ ففيه شعر كثير خاص بالمهذب وبعواطفه التى غنّاها ، وخاصة عاطفة الحب ، فله قطع رائعة تعبر عنها أجمل تعبير وأفصحه . واقرأ هذه الأبيات :

هم نصّب عينى أنجدوا أو غاروا ... ومنى فؤادى أنصفوا أو جاروا
وهم مكان السر من قلبى وإن ... بعدتْ نوًى بهم وشط مزار
فارقتهم وكأنهم فى ناظرى ... مما تمثلهم لى الأفكار
تركوا المنازل والديار فما لهم ... إلا القلوب منازلٌ وديار
واستوطنوا البيد القفار فأصبحت ... منهم ديار الأنس وهى قفار
فلئن غدت مصر فلاة بعدهم ... فلهم بأجواز الفلا أمصار
أو جاوروا نجدا فلى من بعدهم ... جاران : فيضُ الدمع والتذكار
أمنازل الأحباب غيّرك البلى ... فلنا اعتبار فيك واستعبار
سقيا لدهر كان منك تشابهت ... أوقاته فجميعه أسحار
قصرت لى الأعوام فيه فمذ نأوا ... طالت بى الأيام وهى قصار
يا دهر لا يغررك ضعف تجلدى ... إنى على غير الهوى صبار

وهذه أبيات تعبر عن عاطفة الحب فى أنبل صورها ؛ فالمهذب يعلن لأحبائه أنه لن ينساهم أنجدوا أو غاروا وأنصفوا أو جاروا . ولقد أنجدوا ولكن أطيافهم ماثلة فى ناظريه ، ولقد تركوا المنازل والديار ولكنهم حلوا فى قلبه وشغاف فؤاده . وإنه ليذكرهم وحولهم جيرانهم كما يذكر نفسه ولا جار له إلا الدمع والتذكار . وإنه ليقف أمام منازلهم فترتسم فى نفسه الأوقات التى قضاها معهم ، وتبدو فى مخيلته جميعاً كأنها أسحار بكل ما فى الأسحار من حسن وجمال . أما الأعوام التى مرت به فى قربهم فقد كانت قصيرة ، أو هى تبدو الآن قصيرة ، حتى لكأن العام يوم من الأيام التى يقضيها الآن فى بعدهم . واستمع إلى هذه الأبيات التى رواها العماد أيضاً :

ليت شعرى كيف أنتم بعدنا ... أترى عندكم ما عندنا

بنتمُ والشـوق عنـا لم يبن   وظعنـتم والأسى ما ظعنا
لم يهُن قط علينـا بُعْـدكم   مثلما هـان عليكم بُعدنا
ولقـد كنـا نعزى النفس لو   كنتم قبـل التنـائى مثلنا
لم تبـالوا إذ رحلتم غـدوة   أى شئ صنـع الدهر بنـا
سهرتْ أجفاننـا بعـدكم   فـكأنا ما عرفنـا الوسنـا
فاخدعـوا العين بطيف مثلما   يخـدع القلبَ أحاديثُ المنى

وهـذه أبيات سهلة عذبة تعبر عن كل ما يجرى فى النفس من أفكار وعواطف فى سهولة ويسر . والسهولة وما يتصل بها من خفة هى طابع المصريين فى كل عصورهم . وكأن الشعر المصرى وليد بيئته ، فهو يجرى فى ترفق ولين كما يجرى النيل . وربما كان ابن الزبير بحكم أنه من شعراء المديح أكثر شعراء عصره تقليدا لنماذج المشرق ، ومع ذلك فشعره حتى فى مدائحه خفيف سهل . وقد كان يستخدم التضمين ، ومع ذلك فهو لا يؤذى الشعر عنده كما يؤذيه عند غيره . وخير مثال لذلك هذه الأبيات :

أقصرْ فديتـك عن لومى وعن عذلى   أولا فخـذلى أماناً من ظُبـا المقل
من كل طرف مريض الجفن ينشـدنى   « يا رب رام بنجد من بنى ثعل »
إن كان فيه لنـا وهـو السقيم شفًـا   « فربمـا صحت الأجسـام بالعلـل »

فقد ضمن البيت الثانى شطراً من شعر لامرئ القيس بعد تحوير خفيف فيه ، وكذلك ضمن البيت الثالث شطراً من شعر للمتنبى ، ومع ذلك فلا نحس ثقلا فى الأبيات . لـكن من غير شك حينما يعدل المهذب عن مثل هذا التضمين وما يطوى فيه من تكلف يقترب من نفوسنا ويدنو من قلوبنا بما يطرفنا من شعر خفيف على نحو ما نجد فى قوله :

لا تبعثـوا لى فى النسيم تحيـة   إنى أغار من النسيم عليـكمُ

وهذا بيت يعبر عن رقة ورهافة حس بالغة . ولعل فى هذا كله ما يصور شاعرية المهذب من بعض الوجوه ، وأنه كان شاعراً ممتازاً فرض نفسه على شعراء عصره .

شوقى ضيف